د. طارق منصور
كلية الآداب-جامعة عين شمس
كلية التربية الأدبية-جامعة الطائف

المسلمون في الفكر المسيحي

(العصر الوسيط)

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨ م
مصر العربية للنشر والتوزيع

العنوان : المسلمون في الفكر المسيحي (العصر الوسيط)

المؤلف : د. طارق منصور

الطبعة : الأولى ٢٠٠٨

الناشر : **مصر العربية للنشر والتوزيع**

١٩ ش إسلام- حمامات القبة- الزيتون- القاهرة

تليفاكس ٢٢٥٦٢٢٦٨ / ت ٢٤٥٠٥٨٦٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/١٦٨٦٣

I. S. B. N : 977-5471-58-3

البريد الإلكتروني : masrelarabia@hotmail.com

الغلاف : وائل الملا

تنفيذ داخلي : مها عصمت

جميع حقوق الملكية الأدبية محفوظة للناشر ويحذر طبع أو تصوير أو ترجمة أو الطباعة على الوسائط بجميع أنواعها للكتاب سواء كاملاً أو أي جزء منه إلا بموافقة الناشر خطياً.

© Copyrights reserved

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٦٥) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٦٦).

صَدَقَ اللهُ العَظِيمْ

آل عمران، الآيات ٦٤-٦٦

إهداء

إلى المفكر الكبير السيد يسين

محبة وتقديراً

ط.م.

الفهرس

المقدمة..... ١١-١٥

الفصل الأول

صورة الإسلام في الفكر الأوروبي بين الأدب والتاريخ..... ١٧-٦٩

الفصل الثاني

بلاد الشام وحوار الأديان في القرن الثامن الميلادي..... ٧١-١٣٣

الفصل الثالث

فتوح الشام في ضوء حولية ثيوفانيس المعترف: دراسة في أيديولوجية المؤلف تجاه الإسلام..... ١٣٥-٢٠٠

الفصل الرابع

ملحمة ديجينيس أكريتيس ورؤية الآخر: دراسة في باطن النص وأيديولوجية المؤلف..... ٢٠١-٢٥٧

قائمة المصادر والمراجع..... ٢٥٩

المقدمة

منذ سنوات خلت شاء الله العلي القدير أن التقي بالمفكر الكبير السيد يسين للمرة الأولى، وكان هذا عندما توليت إدارة أحد المراكز البحثية بجامعة عين شمس لبعض الوقت، ووقتها تعاملت مع كوكبة من عمالقة الفكر في مصر والعالم العربي أمثال سيادته والكاتب الكبير الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك، والأستاذ الدكتور محمد رياض وغيرهم، وجهاً لوجه. وأخذت أنهل من آرائهم وأفكارهم وأتابع كتاباتهم بشغف شديد، ومضت السنون ولم أدرك أنهم تركوا أثراً شديداً في قلبي، ورسموا خطوطاً جديدة في نفسي، فصرت مولعاً بواحد من علومهم، أعني بمسألة الحوار، سواء بين الأمم، أو بين الأديان. بيد أنني وجدت نفسي أكثر ميلاً لمغازلة أفئدة المثقفين وألبابهم من طرفي الأمة العربية، المسلمين والمسيحيين، لاسيما عندما تابعت فتيل الفرقة بينهما، وكيف يشعله الغرب الأوروبي من حين إلى آخر، ويحرقنا بلهيبه. وفي تلك الأثناء كنت منهمكاً في قراءات عدة، أزعم أن بعضها أكاديمي تقليدي، لا يخرج عن نطاق الارتقاء بالدراسات التاريخية، لاسيما التي تعود إلى العصور الوسطى. وحينئذ وجدت ميلاً إلى الدراسات المقارنة التي تجمع ما بين المسلمين والمسيحيين في محكمة واحدة، على صفحات التاريخ. ورويداً رويداً صرت منجذباً نحو قطبي العالم، وأخذت في العودة إلى الأصول التاريخية لفهم طبيعة العلاقة بين الطرفين، لمعرفة أين تكمن المشكلة. وهنا وجدت مئاتٍ من الكتب، خُطت بأقلام سواء إسلامية أو مسيحية، بعضها يتسم بالاعتدال والآخر بالجنوح والشطط. وفيما بين هاتين الفئتين تقف مجموعة من الكتاب يكتبون بحذر شديد، وعن استحياء، حتى لا يفقدون أقلامهم، أو يتهمون بتهم لا أساس لها.

وهكذا، أخذت أدرس وأحلل وأترجم من الكتب الأصلية، التي خطها الرهبان باللغتين اللاتينية واليونانية القديمة، لاكتشف أين يكمن موطن الداء، وفي نفس الوقت كانت ترن في أذني كلمات الكاتبة البريطانية كارين آرمسترونج، حين أقرت بأن المواطن في الشارع

الأوروبي لا يزال يحيا على أفكار العصور الوسطى عن الإسلام؛[1] واستدعت ذاكرتي أيضاً ما قاله الرئيس الأمريكي جورج بوش، في خطابه للشعب الأمريكي، عشية غزوه للعراق، بأن ما يفعله "هو حرب صليبية"، وهي فكرة تعود في أساسها إلى العصور الوسطى، تستخدم الدين لخدمة أغراض السياسة؛ وأخيراً منذ عدة شهور كلمات البابا بندكت السادس عشر، التي شهر فيها بالإسلام، معتمداً على أفكار الإمبراطور البيزنطي مانويل باليولوجوس، الأرثوذكسي المذهب، والتي تعود إلى عصر احتضار بيزنطة في القرن الرابع عشر الميلادي، حسب إقراره بعد ذلك.[2] وفي نفس الوقت لم تغفل ذاكرتي ذلك العنف الأوروبي، بزعامة أمريكية، غير المبرر، تجاه المسلمين في العراق، والتنكيل بالمسلمين في بقاع كثيرة من المعمورة، والحط من شأن المصحف الشريف على أيدي عسكر أمريكا الفالت زمامهم، في باستيلهم بغوانتانامو؛ وكذلك موقف بعض الصحف الأوروبية من الرسول ﷺ والاستهزاء به على صفحاتها، ودفاع حكوماتها عنها باسم حرية التعبير.

ومع النظر إلى كل هذه الأفكار التي تتسم بالظلمة، والمسيطرة على العقل الأوروبي في نظرته إلى الإسلام، نجد في المقابل رد فعل إسلامي محدود، تطلقه حكومات دول إسلامية على استحياء، دون أن تأخذ بمبدأ الغيرة على الدين أو العرض، والتي كانت يوماً ما سمة من سمات الشخصية العربية. ويتبقى المجهود الفردي، الذي يقوم به مثقفونا وكتابنا، من حين إلى آخر، ليحاولوا الرد على افتراءات الغرب الأوروبي على الإسلام، المبنية في الأساس على سوء الفهم، والثقة المطلقة في كتب صفراء، خطها رهبان العصور الوسطى عن الإسلام، وجعلوها قرآنهم الذي لا يقبل التحريف فيما يتعلق بشتى قضايا الإسلام.

---

[1] تعترف الكاتبة البريطانية كارين آرمسترونج في شجاعة بالغة أن آثار الوهم القديم عن صورة الرسول (ص) لازالت قائمة حتى الآن في أوروبا، إذ ما يزال من الشائع عند الغربيين أن يسلموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل استغل الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف، وذلك على الرغم من وجود دراسات علمية موضوعية عن محمد والإسلام تثبت خطأ هذه الأسطورة المرتبطة بمحمد. انظر، آرمسترونج، محمد، ص ٣٧-٣٨.

[2] لعل أفضل ما كتب في الرد على البابا تاريخياً جاء على لسان كاتب إسرائيلي يدعى يوري أفنيري. انظر، سيف محمد، الكاتب الإسرائيلي يوري أفنيري يرد على بابا الفاتيكان، ترجمة: خالد الجبيلي. منشور على الموقع الاليكتروني التالي: www.kikah.com لمن يبغي الاطلاع عليه.

ومن هذا المنطلق الوطني، كان واجب عليّ بما أتاه الله لي من ملكات محدودة، وخبرة في البحث التاريخي، والقدرة على القراءة بلغات عدة، أن أترجم كل هذا إلى سطور معتدلة الفكر أقدمها للقارئ العربي، المسلم والمسيحي في آن واحد، أدعوه فيها من خلال عدة دراسات تاريخية-فكرية أن يعيد قراءة تراث الماضي بعين الإنصاف، والبعد عن الشطط والجنوح، وعن الأفكار المتوارثة، التي تحط من شأن الآخر، وليدرك الجميع حقيقة واحدة أن الله هو مصدر كل الديانات السماوية، اليهودية، والمسيحية، والإسلام؛ وأن الاختلاف في الرأي لا يعني إقامة الحد على الآخر. ويبقى أن نُذكر بحسن معاملة الرسول ﷺ لأهل الذمة من اليهود والمسيحيين، بل وبقوله "من آذى ذمياً فقد أذاني"، أو بوصيته للعرب بأن يستوصوا خيراً بأقباط مصر، وأن يتخذوا منهم جنداً، فضرب بذلك مثلاً لعامة المسلمين في الأرض في حسن معاملة الآخر، بل إن خلفاءه الراشدين وقوادهم الأوائل ضربوا مثلا يحتذى في حسن معاملتهم أيضاً، عندما حافظوا على أملاكهم وأرواحهم وضياعهم وبيعهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم، عند فتوحاتهم لبلادهم.

على أية حال، نقدم في هذا الكتاب أربع دراسات تاريخية-فكرية، تعتمد جميعها على المصادر الأصلية التي كتبت بشتى اللغات، اليونانية القديمة، واللاتينية، والأرمينية، والعربية، والقبطية، من كتب تاريخية، وكتب دينية كالعهد القديم والعهد الجديد والقرآن الكريم، ومضابط كنسية وغيرها، بالإضافة إلى المراجع الأوروبية والعربية الحديثة بشتى لغاتها.

وقد قَدّمت ثلاثاً من هذه الدراسات في مؤتمرات دولية. فتأتي الدراسة الأولى وهي بعنوان "صورة الإسلام في الفكر الأوروبي الوسيط"، والتي تنشر للمرة الأولى في هذا الكتاب، لتبين كيف لعب رهبان غرب أوروبا نفس دور رهبان الشرق في سوء فهم الإسلام وتشويه صورته بين عامة الأوروبيين، لاسيما في عصر الحروب الصليبية، مما جعل كاتباً مثل دانتي اليجيري، وهو واحد من كتاب عصر النهضة في إيطاليا البارزين، يضع الرسول ﷺ في الدرك الأسفل من النار، في كتابه الكوميديا الإلهية.

وفي الدراسة الثانية "بلاد الشام وحوار الأديان في القرن الثامن الميلادي"، والتي أُلقيت في الندوة الدولية التي عقدت بجامعة دمشق في نوفمبر ٢٠٠٦م، بعنوان "دمشق في التاريخ"، نكشف من خلالها كيف لعب الرهبان الأوائل ببلاد الشام الدور الرئيسي في سوء

فهم العالم المسيحي للإسلام، من خلال كتابات فقدت صوابها عند حديثها عن القرآن الكريم، والرسول ﷺ، ومناسك الشريعة الإسلامية. وليس أدل على ذلك من العناوين الصارخة التي صدّر بها هؤلاء الرهبان كتاباتهم مثل "دحض السراقنة Refutation of Saracens"، أو "دحض الهاجريين Refutation of Hagarians"[3] أو "ضد محمد Against Muhammad"...وغيرها. ونثبت أيضاً من خلال هذه الدراسة أن بلاد الشام كانت مهد الحوار بين أتباع الديانتين المسيحية والإسلام.

وفي الدراسة الثالثة وهي بعنوان "فتوح الشام في ضوء حولية ثيوفانيس المعترف: دراسة في أيديولوجية المؤلف تجاه الإسلام"، والتي قدمتها في مؤتمر دولي عقدته جامعة حلب في أبريل من عام ٢٠٠٦م، بعنوان "بلاد الشام زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)"، تقدم نموذجاً لكتابات الرهبان الأرثوذكس، من القرن التاسع الميلادي، لنرى من خلالها دليلاً واقعياً على سوء فهم الآخر للإسلام، وتشوه المصادر التاريخية والأدبية التي اعتمد عليها الآخر في القرون الوسطى عند كتابته عن الإسلام ودراسته. فنرى جميعاً، مسلمين ومسيحيين، أن كتاب الكنيسة القدامى أساءوا ترجمة النصوص القرآنية وفهمها، واعتمدوا على كتابات غير دقيقة عن الإسلام مثل كتابات يوحنا الدمشقي، وثيودور أبو قرة، وبارثُلميوس الرهاوي، ونيقتاس البيزنطي، وثيوفانيس وغيرهم كثر؛ وهو ما أدى إلى اتساع الهوة الأيديولوجية بين الطرفين، وتحرش أقلامهم بعضها البعض.

وأخيراً تأتي الدراسة الرابعة وهي بعنوان "ملحمة ديجينيس أكريتيس ورؤية الآخر"، وهي الملحمة الرومية الشعبية التي يصور فيها الروم المسلمين على أنهم قطاع طرق، ولصوص ماشية، يتخلون عن دينهم من أجل فتاة مليحة الوجه؛ وقد ألقيت هذه الدراسة في المنتدى الدولي الذي عقدته جامعة فيلادلفيا في مارس من عام ٢٠٠٤م بعنوان "Literature in Translation". ومن المعروف أن الأدب بصفة خاصة له تأثيره الأسرع والأقوى من كل الكتابات الإنسانية، بين جموع القراء أو المستمعين؛ أو يمكن القول إنه التاريخ الذي لم يكتبه المؤرخون، فيجيء ليعبر عن نبض الواقع وهمومه وأحلامه. ومن

[3] تعني كل هذه المسميات في الكتابات اليونانية المسلمين، وقبل الإسلام كانت تعني العرب سكان الجزيرة العربية.

هذا المنطلق خرجت هذه الملحمة من رحم الصراع الإسلامي-البيزنطي، لتقدم لنا بصورة سافرة صورة المسلم عامة في الفكر الشعبي في القرن العاشر الميلادي.

على أية حال نأمل من الله العلي القدير أن ينال هذا الكتاب تقدير القارئ العربي، وأن يكون فاتحة لإعادة قراءة تراث الماضي، بعين الإنصاف والموضوعية، دون تحيز لطرف من الأطراف أو قضية من القضايا. وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى عدد من المؤرخين والمفكرين، الذين كانت لهم أياد بيضاء على هذا الكتاب، من خلال مناقشاتهم وحواراتهم حول موضوعاته وأخص بالشكر شيخ مؤرخي الشام أ.د. سهيل زكار، الأستاذ بجامعة دمشق، والأب د. سهيل قاشا، من دير الآباء اليسوعيين ببيروت، والصديق العزيز أ.د. نزيه شحادة، الأستاذ بالجامعة الأمريكية ببيروت، أ.د. فاسيليوس خرستيدس، الأستاذ بالجامعة الأمريكية بأثينا، د. عباس صباغ، رئيس قسم التاريخ بجامعة حلب؛ وأساتذتي أ.د. قاسم عبده قاسم، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق، أ.د. وسام عبد العزيز فرج، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة المنصورة، أ.د. فايز نجيب اسكندر، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة بنها، أ.د. محمود سعيد عمران، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية. والأصدقاء الأعزاء أ. د. حاتم الطحاوي، أستاذ تاريخ العصور الوسطى المشارك بجامعة الزقازيق، د. عبد العزيز رمضان، مدرس تاريخ العصور الوسطى بجامعة عين شمس، أ. مصطفى كامل خليفة. فلهم مني جميعاً خالص الشكر والتقدير. أخيراً خالص الشكر والامتنان إلى أسرتي الصغيرة التي تحملت أعبائي وانشغالي عنهم، من أجل إخراج هذا الكتاب على أكمل وجه نرجوه له.

وعلى الله قصد السبيل

د. طارق منصور

م. نصر / القاهرة

١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨ م

نرحب بتعقيبات وملاحظات القراء مع خالص الشكر مقدماً عليها: tarekmansoureg@yahoo.com

الفصل الأول

صورة الإسلام في الفكر الأوروبي الوسيط
بين الأسطورة والتاريخ

صورة الإسلام في الفكر الأوروبي الوسيط
بين الأسطورة والتاريخ

لا يستطيع الباحث والمثقف العربي فهم الموقف الأوروبي من الشرق العربي عامة والإسلام خاصة، إلا بقراءة متأنية لما بين ثنايا التاريخ الذي سيحملنا على صفحاته ويعود بنا إلى ماض سحيق، تعود جذوره إلى العصور الوسطى؛ حيث نقف هناك عند أبواب القسطنطينية لنرى بأعيننا الفرائص المرتعدة لمجرد خبر شاع أن المسلمين (السراقنة بلغة ذلك العصر Saracens) قادمون! ها هي الحاميات تنتشر فوق الأسوار، الجسور ترفع، المنجنيقات تنصب، الرماة يتخذون مواقعهم، صور العذراء والمسيح تدلى من فوق الأسوار، الأبواب تغلق، السكان يهرولون، الأكف ترتفع بالدعاء، تمتمات باسم المسيح، العذراء، القديسون المحاربون، الكل يسأل الرب أن يزيح الغمة وينصرف البرابرة عن مدينة الرب! بهذا الوصف المستوحي من الوقائع التاريخية نود القول كيف كانت الصورة الظاهرية التي رأى بها الأوروبيون المسلمين واعتبروا أنهم يشكلون تهديداً جسيماً لهم.

وفي هذه الدراسة سوف نتنقل بين كتابات مؤرخي، وكتاب، وشعراء أوروبا، ونستجلي الأمر منهم ونقف على حقيقته؛ وسنقرأ بعضاً مما خلفوه للتاريخ، الذي يثبت أنهم جنوا على الإسلام، وساهموا في قتامة الصورة التي انطبعت في عقل المواطن الأوروبي المعاصر، وجعلته يرى في الإسلام عدواً للحضارة الأوروبية! وسنحاول أن نكشف زيف الأفكار الأوروبية عن الإسلام، وكيف أنها تشكلت في بوتقة الميثولوجيا الأوروبية، التي لا تمت إلى الواقع بصلة، وسنكتشف أيضا كيف لعب الصليبيون والرهبان دورا لا يمكن إغفاله في تكوين صورة سوداء عن الإسلام في الفكر الأوروبي.

لقد كان الجميع في أوروبا ينظر إلى الإمبراطورية البيزنطية على أنها السد المنيع الذي يحميها من طوفان الإسلام، سواء جاء هذا الطوفان عن طريق العرب أو السلاجقة

الأتراك أو العثمانيين. ومن الممكن تخيل الصدمة التي أحدثها سقوط القسطنطينية في أيدي السلطان محمد الفاتح العثماني عام ١٤٥٣م عند الأوروبيين.[١]

فهاهو المؤرخ البيزنطي دوقاس Ducas يتحسر على ضياع مدينته قائلاً: **"واحسرتاه! يا للكارثة! إن ما يحدث لهو أمر رهيب ومريع. وأسفاه! ماذا حدث لنا؟ ماذا نشاهد الآن؟ التركي (الكافر) يقف على المذبح المقدس، الذي يحتوى على الذخائر المقدسة للرسل والحواريين والشهداء. إنه لشئ مريع! أيتها الشمس، أين نور الرب؟ لم يعد هناك أدنى اعتبار لمقامنا وديننا بين الأمم. إن الكنيسة التي كانت تسمى كنيسة الثالوث المقدس، أو الكنيسة العظمى، أو صهيون الجديدة، قد أصبحت الآن مذبحاً للبرابرة، وتغير اسمها والغرض منها لتصبح منزلاً لمحمد! يا إلهي...لا نريد منك سوى أن تشملنا بعدلك ورحمتك."**[٢]

لقد حاول الأوروبيون، ولو نظرياً، مد يد العون لبيزنطة للصمود في وجه المسلمين، في بعض الحقب الحرجة التي كانت تعانى فيها بيزنطة من الضغط الإسلامي العسكري؛ فعندما اشتد الضغط التركي السلجوقي على البيزنطيين في عهد الإمبراطور الكسيوس كومنينوس (١٠٨١ – ١١١٨م)،[٣] استغلت البابوية في أوروبا هذه الظروف التاريخية وروجت لفكرة الاستغاثة البيزنطية بالغرب الأوروبي لصد المد الإسلامي نحو القسطنطينية،[٤] لتفرز من جعبتها فكرة الحرب المقدسة، التي تجمتها الحركة الصليبية.

---

[١] عن الفتح العثماني للقسطنطينية عام ١٤٥٣م أنظر الروايات التاريخية التالية:

Tedaldi, Leonard of Chios; Chalcocondylas; Ducas; Riccherio; Dolfin; Lomellino in: *The Siege of Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts*, Eng. trans. J.R. Melville Jones (Amsterdam 1972), 1-135.

[٢] Doukas, M., *Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks*, Eng. trans. H. J. Magoulias (Detroit 1975), 231.

انظر أيضاً نيقولو باربارو، الفتح الإسلامي للقسطنطينية، يوميات الحصار العثماني ١٤٥٣م، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوي، (القاهرة، ٢٠٠٢)، ص ٤٨.

[٣] انظر، عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور الكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨م، (القاهرة، ١٩٨٣)، ص ١٨٣-٢٢٧.

[٤] عندما قابل الكسيوس كومنينوس الكونت روبرت أمير الفلاندرز أثناء قيامه برحلة حج إلى فلسطين طلب منه أن يرسل بعض الفرسان للعمل في الجيش الإمبراطوري لدفع خطر السلاجقة، وهناك خطاب، ربما كان فريقاً، منسوب إلى الكسيوس كومنينوس يطلب فيه المساعدة من البابا أوربان الثاني لمواجهة المسلمين الذين يهددون دولته.

ولنقرأ بعضاً مما ذكره المؤرخون عما قاله البابا أوربان الثاني إلى الجموع الغفيرة التي احتشدت في كليرمون Clermont في نوفمبر من عام ١٠٩٥م، فها هو فوشيه الشارتري Fulcher of Charters ينقل كلمات البابا: "...**ما يزال ينتظركم عمل جديد ظهر بتوجيه رباني، وهو عمل عاجل وملح يربط بينكم وبين الرب، ومن خلاله يمكنكم أن تكشفوا عن نواياكم الطيبة. إذ يجب أن تبادروا بتقديم المساعدة لإخوانكم القاطنين في الشرق، أولئك الذين يحتاجون لمساعدتكم التي ألحوا في طلبها كثيراً، لأن الترك...قد هاجموهم، كما يعلم الكثيرون منكم.. فإذا تركتموهم يتمادون أكثر من ذلك، فستكون الهزيمة الكاملة من نصيب شعب الرب من المؤمنين...**".

كما يقدم روبرت الراهب Robert the Monk رواية أخرى عن كلمات البابا، حيث يقول أن البابا ذَكَّر سامعيه بأن المسلمين غزوا أملاك المسيحيين في الشرق، وأخذوا بعضهم أسرى، كما قضوا على بعضهم بالتعذيب، وأنهم دمروا الكنائس أو حولوها إلى مساجد. ثم أخذ البابا يداعب مشاعر الفخر والزهو حين ذكر الفرنجة بتقواهم وبأمجاد أسلافهم أمثال شارلمان ولويس وغيره؛ ثم قال لهم "...**هذه الأرض التي تقطنونها، تحيط بها البحار وقمم الجبال، وهي تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة، كما أنها بلاداً ليست موفورة الثراء؛ إذ أنها لا تنتج إلا ما يكفي زراعتها بالكاد، وبما أنكم تقتلون بعضكم بعضاً، بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل، فلتنبذوا الكراهية من بينكم، ولتخمدوا منازعاتكم، ولتوقفوا حروبكم، ولتتخلوا عن كافة مظاهر الشقاق والخلاف. سيروا على طريق الضريح المقدس، وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير، وكونوا أنتم سادتها. فهذه الأرض التي يقول الكتاب المقدس أنها "تفيض باللبن والعسل" قد منحها الرب ملكاً للمؤمنين...**".[٥]

هكذا كانت البابوية تحرض الأوروبيين، العامة منهم والأمراء على الذهاب إلى الشرق والانتقام من المسلمين ودحرهم وتخليص قبر السيد المسيح من أيديهم، الأمر الذي

---

[٥] انظر، فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة قاسم عبده قاسم، (الكويت، ١٩٩٣)، ص ٨٧ وما بعدها، قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥-١٠٩٩م، (القاهرة، ١٩٨٣)، ص ١٠٩-١١٠ وما بعدها، انظر، قاسم عبد قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٤٩، (الكويت، ١٩٩٠)، ص ٩٢.

أفرز في نهاية المطاف خروج الحملة الصليبية الأولى بشقيها الشعبي والنظامي إلى العالم الإسلامي، لتتلوها باقي الحملات الصليبية المعروفة لنا، والتي عانى منها الشرق الإسلامي أشد معاناة، بل وعانت منها بيزنطة أيضاً عندما دخلوها في عام ١٤٠٢م وأعملوا النهب والسلب فيها.

على أية حال، دفعت الحاجة الماسة من وجهة النظر الأوروبية لصد الإسلام إلى ظهور أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام ١١٤٣م على يد روبرت كيتون Robert Keton، بدعم من الأب بطرس المبجل، رئيس دير كلونى Cloni. كانت وجهة نظر بطرس المبجل أن الإسلام هرطقة مسيحية واسعة الانتشار، شأنها في ذلك شأن الهرطقات القديمة، يمكن أن تشكل خطراً على الإيمان الكاثوليكي، إن لم تجر دراستها على حقيقتها، لإمكان مكافحتها بالوسائل المناسبة. ولم تلق آراء بطرس المبجل الاهتمام الكافي من الرهبان واللاهوتيين المعاصرين له. ويعتقد ريتشارد سوذرن أن ذلك يعود إلى بروز الإسلام بوصفه خطراً عسكرياً ماثلاً بعد هزائم الصليبيين بالمشرق، وظهور صلاح الدين الأيوبي، وما أحدثه من رعب في أوروبا جعلت ملك انجلترا يخصص ضريبة عرفت باسم "عشر صلاح الدين"،[٦] تجمع لصالح المقاومة الأوروبية الصليبية ضد المسلمين. فقد رأى اللاهوتيون أن الإسلام ينبغي أن يواجه عسكرياً، ولا جدوى من محاولة إنقاذ أرواح الهالكين من أتباعه عن طريق التبشير.[٧]

وهكذا عاد الخطر الإسلامي، من وجهة النظر الأوروبية، إلى الظهور فقضى على فترة الازدهار القصيرة في الاهتمام بالتعرف على الإسلام من مصادره الأصيلة، كمحاولة بطرس المبجل. ثم ظهر المغول فاظهروا آمالاً كاذبة في نفوس اللاهوتيين الأوروبيين. فقد ظنوهم مسيحيين يريدون القضاء على الإسلام من منطلق عقائدي كاثوليكي؛ لذا ليس هناك ثمة ما يدعو للتعرف على الإسلام السائر للزوال الآن. بيد أن فترة الاهتمام السالفة

---

[٦] عن هذا الأمر انظر، حسين عطية، "عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية في غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة المورخ المصري، عدد ٦ (١٩٩١)، ص ١١٥-١٧٦.

[٧] Southern, R., *Views of Islam in the Middle Ages* (London 1962).

اعتمد الباحث على الترجمة العربية لهذا الكتاب سوذرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيد (بيروت، ١٩٨٤)، ص ١٦-١٧.